العفو
2005 04 20 - 0002 - 32
ش ٥/٤/٢٠

موالان جميلان في أذن الحرب

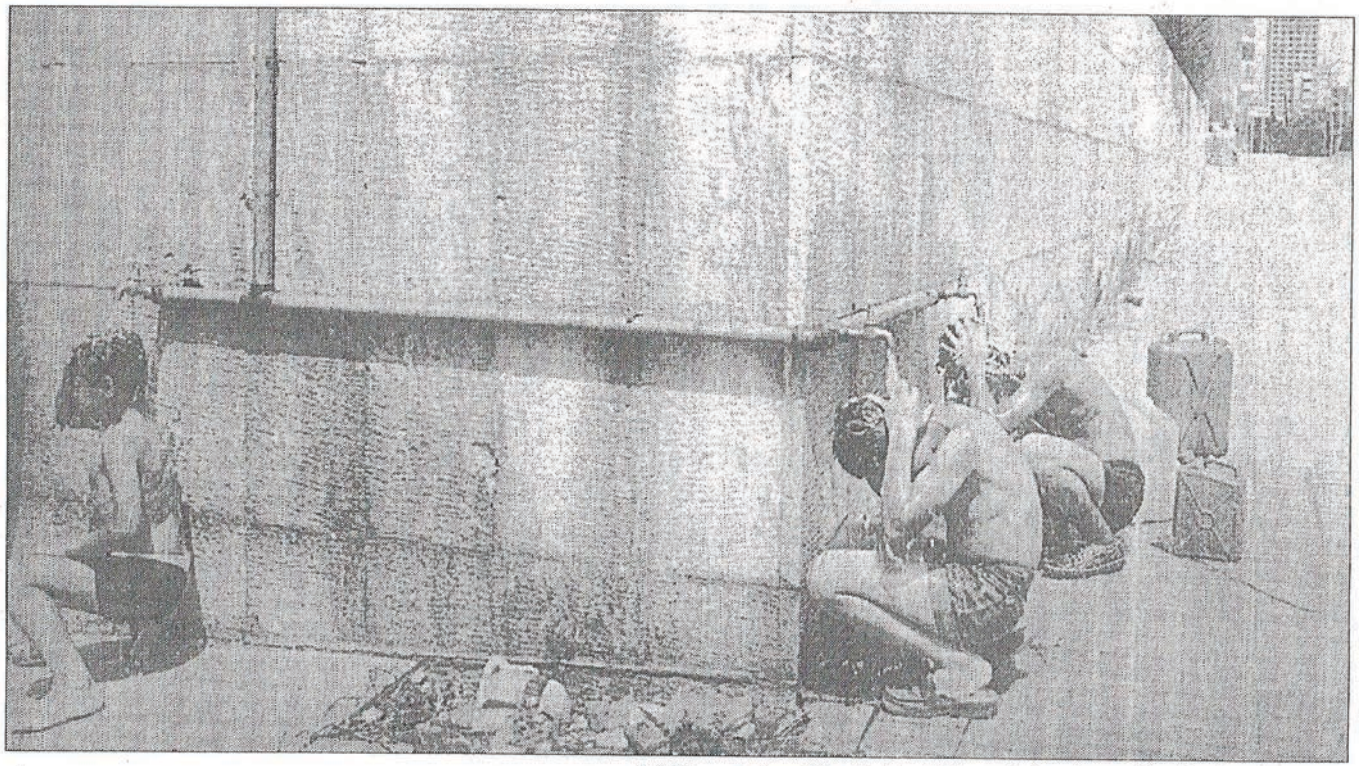

صورة عن «حملة ذاكرة الحرب وانصاف الضحايا المستمرة معاناتهم» (بيروت ١٩٧٥)

١ ـ معترين

«معترين» هم الذين خطفوا عدنان حلواني والد زياد. معترين هم الذين نشلوه من زوجته وداد وولديه الصغيرين. معترين هم الذين عتروا عائلة زياد. نحن البعيدين عن زياد وعائلته، الذين ما وصلنا من التعتير شيء نكرههم. نلومهم. نبصق على ما اقترفت أيديهم. ولو صح لنا لسرقناهم مثلما سرقوا زياد وأهله، ما عدا زياد نفسه. هو لا يلومهم. لا يكرههم. يشفق عليهم. يشفق على تعتيرهم، مع انه يعرفهم جيدا. يدرك اسماءهم وأشكالهم وأمكنتهم. هم كانوا أداة بيد مسؤوليهم ينفذون الأوامر. يقول اننا لو كنا بهذا العمر في زمن الحرب لكنا خطفنا او خُطفنا، قتلنا او قُتلنا، شاركنا او اجبرنا على القتال.

يستفزك بهدوئه. هو مشهد للجيل الذي ربما يجب ان يلي الحرب. مشهد للتصالح الوطني والبشري. يقرأها جيدا بعيون لا تنام لكنها تحدد احجام الأشياء بالضبط. فيدرك انها كانت حربا عبثية تشوبها الفوضى الفائقة. يفهم حسابات الحرب، إن الناس لا تعد فيها اكثر من ارقام. يرى عماها ولا يعاتبها لأنها في طريقها المجنون كسرت له اغلى مزهرية تحضن اغلى الزهور ودهست له عمرا يحبو على صدر عمر. بالطبع هذا الهدوء كان ثائرا قبلا. حينما كان في السادسة وما حولها، هذا عمره عند اختطاف ابيه، كان مزعوجا مكسورا متحسرا. لكنه يقول اننا كلما ابتعدنا عن الامر خفت وطأته علينا. زياد بالذات محاصر بمأساة الخطف اكثر، فأمه ومنذ اختطاف أبيه، سيرت مسيرة الآلام ولا زالت تركن صليب حزنها وتحمل على كتفها صليب كل ذوي المخطوفين. فحينما يسأل عن نضال امه يقول ان هذا خيارها ويدعمها حينما يقف الى جانبها في الساحات. حينما يسحب حنجرته الى حنجرتها ويصرخ الى صراخها. حين يعينها في شؤون المنزل وأكثر حين يحبها. لكن لو عادت الامور اليه لما انتهج سبيل النضال هذا من اجل قضية المفقودين في هذا البلد. فالأهالي مضطرون لتوقيت تحركهم على هوى ظروفه وهو لا يسعهم اصلا. يتحسر لأن الوجوه نفسها تعاود ١٣ نيسان. يأسف ليس لحاله بل لحال الاهالي الذين لم ينتصروا بمساندين جدد بحجم مصابهم. يحاول ان يكون واقعيا اكثر مع انه لا يستطيع ان يطلب من ام او زوجة ان تصفح او تصافح كف الواقع الوسخ. متصالح هو مع مأساته. يشفق هو عليها بل يشفق على من يشفق عليه. يدرك ان مأساته التي يتحسس دوما مأساتها ارحم من مآسي الباقين. عندها يشير الى الأم التي فقدت اربعة من ابنائها او التي فقدت زوجها وأباها وآخرين.

٢ ـ طرف رشيق

احب الجميلة وفاء. انقاد لسحرها ورشاقة الأمل الذي يعشعش على شرفة غدها. احبها وأحبته هو المثقف الراشد مذ تعارفا. ثم اخذه البعد الذي لاصقهما اكثر وتطايرت بينهما الرسائل والهواتف. أرسلت تخبره بذلك الامر. ظنت انه قرأ الرسالة. صارت تستفسر عن رده فيطلب ألا تهتم بذلك. باعت حذرها وخوفها واستسلمت لطمأنينتها. وذات مرة ومن ضمن الاحاديث تطرقت بعفوية لذلك الامر فكانت بداية النهاية. لم يكن فعلا قد قرأ الرسالة. تبدل مذ ذلك الحين. زادت عصبيته وقسوته عليها الى درجة لم تعد تحتمله فاحتجت، لكنه جابهها بأن «مثلما انا اتحملك مثلما انت لازم تتحمليني». لم يعد يتحدث عن الارتباط الرسمي كإطار لعلاقتهما التي صار يريدها سرية ثم صار يريدها اضيق وأضيق حتى اختنقت، الى ان غاب من دون مبرر او خبر.

وفاء لم تقترف اي خطيئة. طعنتها الحرب وحاولت ان تثكلها في غد سليم. في التاسعة من عمرها اقتحمت قذيفة منزلها في اول ايام العيد وأصابتها وبدل ان تعيّد على المراجيح رقدت في المستشفى. لا زالت تذكر بالخير الطبيب الذي عالجها اثر الاصابة في قدمها. كان عليه ان يبترها لكنه تخيل صورة الصبية العرجاء فآثر ان يبتر الساق ثم يركب لها طرفا اصطناعيا وهذا ما كان. وفاء تليق بها الحياة اكثر منا. لا ترى ان ايامها لا بد ان تتعثر بساق مبتورة. بالطبع تنزعج ممن يبدي شفقة او نفور لا سيما انها ضحية هؤلاء الناس. تجزم بأن ٣٠٪ من اللبنانيين خرجوا معوقين من الحرب فلماذا لا نعذر بعضنا؟ بل تتعجب لردة الفعل تجاه اصابتها الطفيفة فتخفيها وترتاح لأن الناس لا تلاحظ بسهولة (الطرف) لكنها لا تنزعج اذا عرفوا بل هي لا تتردد في ان تخبر امام الجميع انها ذاهبة لتركب طرفا جديدا.

وفاء جد عادية. تعمل. تخرج. تستسلم للحياة. اصحابها كثر ومحبوها اكثر مع انها لا تستبعد أن «طرفها» هذا قد يركل كل ارتباط بأي انسان. لكنها تصر ان تركل كل عثرة او شفقة او صد يشوه وجه ايام تعشب بأمل رشيق وحب اخضر ووفاء.

آمال خليل